المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/QTIK4644

محمد توفيق | Mohamad Tawfik*

"فهم الإسلام السياسي: مسار بحثي حول الآخرية الإسلامية"

"Understanding Political Islam: A Research Trajectories on the Islamic Otherness 1973–2016"

عنوان الكتاب في لغته: *Comprendre l'Islam politique: Une trajectoire de recherche sur l'altérité islamiste, 1973-2016.*

عنوان الكتاب: فهم الإسلام السياسي: مسار بحثي حول الآخرية الإسلامية.

المؤلف: فرانسوا بورغا François Burgat.

ترجمة: جلال بدلة.

مكان النشر/ الناشر: بيروت: دار الساقي.

سنة النشر: 2018.

عدد الصفحات: 287 صفحة.

* باحث مصري مختص بالعلوم السياسية والعلاقات الدولية.
Egyptian Researcher, Specialized in Political Science and International Relations.
Email: mal078@dohainstitute.edu.qa

مقدمة

تنامى الاهتمام بموضوع "الإسلام السياسي" في الأوساط الأكاديمية الغربية بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، وقُدّمت طروحات كثيرة حاولت تفكيك الحالة الإسلامية على تنوعاتها وتطوراتها، وتفاوتت المقاربات التي استعملت لتقديم إجابات حول ماهية الحركات الإسلامية وديناميتها المختلفة. وقد واجه معظم تلك الطروحات تحديات منهجية واستشرافية متفاوتة بعد صعود التيارات الإسلامية، إبّان ثورات الربيع العربي أواخر عام 2010 وبعدها، ثم صعود أعنف النسخ الإسلاموية الجهادية، ممثلة في تنظيم الدولة الإسلامية "داعش"، وذلك بعد إعلان إقامة "الدولة الإسلامية في العراق والشام" عام 2013. وقد بدا أن الأكاديمية الغربية تتعامل تعاملًا اختزاليًا مع الحركات الإسلامية من دون أن تأخذ في الحسبان تنوعها وتباين بعضها عن بعض، ما أثّر منهجيًا في المعالجة الأكاديمية لموضوع الإسلام السياسي.

ينطلق الكتاب من وسط اتجاه أكاديمي فرنسي في دراسة الإسلام السياسي، يتضمن أسماء عدة بارزة في هذا الحقل، منهم جيل كيبل Gilles Kepel (1955-) وأوليفييه روا Olivier Roy (1949-) وآلان غريش Alain Gresh (1948-) وستيفان لاكروا Stéphane Lacroix، ومبكرًا كان ميشيل سورا Michel Seurat (1947-1986). وقد اتسم هذا الاتجاه بدراساته المبكرة عن الحركات الإسلامية، وكان له الأسبقية في الجدل حول طروحات من قبيل: "فشل الإسلام السياسي"، و"ما بعد الإسلام السياسي"، و"أسلمة الراديكالية"؛ إذ راجت في بدايات هذا الاتجاه المقاربات الجوهرانية والنفسية الاجتماعية القائلة بوجود دوافع التطرف في الإسلام وأسبابه، أو في المسلمين أنفسهم، بينما كانت قلة من الباحثين آنذاك هي المشغولة بالبحث في السياقات والعوامل الخارجية التي ولّدت بعض مظاهر العنف، أو الراديكالية، في الثقافة الإسلامية الحديثة، ومنهم فرانسوا بورغا.

كان الاهتمام مطلع القرن الحالي منصبًّا على الحركات الجهادية والعنيفة بطبيعة الحال، وذلك نظرًا إلى قرب الحالة الثقافية الفرنسية من الجزائر، بما هي إحدى مستعمراتها القديمة، وما حصل إبّان ما سمي بـ "العشرية السوداء" في المدة 1996–2002، ثم أحداث 11 سبتمبر 2001، وانتقال الحالة الجهادية من المحلية إلى العالمية[1]، كل ذلك جعل من الاهتمام بتفسير أسباب التطرف الإسلامي محط تركيز أكاديميين فرنسيين كثر.

تولّدت نقاشات متباينة حول تفسير هذه الظاهرة بين أبرز المفكرين الفرنسيين في هذا الحقل، وتولى بورغا الاتجاه الداعم لمقاربات أعمق وأقرب من الظاهرة في مقابل المقاربات الجوهرانية والنفسية الاجتماعية، ونبتت أولى بذور مقاربته تلك في كتاباته المبكرة التي بدأت عام 1992 بكتابه **الإسلام السياسي: صوت الجنوب**[2]، ثم في عام 2003 بكتاب **وجهًا لوجه مع الإسلام السياسي**[3]، ثم في عام 2006 بكتاب **الإسلام السياسي في زمن القاعدة**[4]. فقد تبنى بورغا نهجًا يعتمد على المعايشة التفاعلية مع الواقع الثقافي والفكري العربي والإسلامي للوصول إلى أفضل النتائج التحليلية، من وجهة نظره.

وفي كتابه **فهم الإسلام السياسي: مسار بحثي حول الآخرية الإسلامية** يقدم الباحث الفرنسي فرانسوا بورغا عددًا من الحجج والدوافع المنطقية، دفعته إلى التعمق في دراسة ظاهرة الإسلام السياسي التي يراها، لا سيما في الأوساط الأكاديمية الفرنسية، تعاني الاختزال والتبسيط المخلّ في فهمها. وقد انطلق بورغا في بدايات اهتمامه بالإسلام السياسي من منطلقات اعتمدت تراكمية أحداث ومواقف كثيرة مرّت عليه في مسيرته المهنية والبحثية، ورسّخت لديه حاجة ملحّة إلى إعادة النظر في بنية التفكير في الإسلام السياسي، وتكرار مواجهته لمعالجات متحيزة وقاصرة، ينتابها كثير من تعمّد التشويه من المؤسسات والمنصات الغربية بالتحديد.

ووفق الدوافع الثاوية بين صفحات الكتاب، ينطلق بورغا من فهم متراكم وعميق لتاريخ الحركات الإسلامية وسيرورتها في العالم العربي منذ سبعينيات القرن المنصرم إلى يومنا هذا؛ فيعالج موضوع الإسلام السياسي بناءً على معرفته التاريخية القريبة من الحالة العربية المتفاعلة مع الرموز والمحاضن الإسلامية المختلفة التي عايشها. ويمكن عدّ هذا الجزء من الكتاب، ويستغرق أكثر من ثلثيه، أكثر أجزائه فائدة من الناحية التأريخية والتوثيقية لتجربة بورغا الشخصية. لكنها في الوقت نفسه أكثرها بعدًا من الطرح الأكاديمي والمنهجي الذي يفترض أن يركز على الأحداث والظواهر السياسية والاجتماعية المعنية بالبحث والتحليل، وهو ما أطال فيه بورغا إطالة نافلة، وجعل مهمة القارئ صعبة ومشوشة في تحديد مواضع النظر والتحليل في سياق هذا السرد التاريخي الطويل نسبيًا. وعلى الرغم من أن هذا الاستطراد قد شغل جزءًا كبيرًا من الكتاب، فإنه يعطي انطباعًا موجهًا

1 نُقلت المعركة إلى أوسع مساحة جغرافية ممكنة، لاستهداف أي هدف في أي بلد، لا سيما الأهداف الغربية. ينظر: عبد الله بن محمد، **المذكرة الاستراتيجية: المنهج الأساس لعمل القاعدة** (دمشق: دار التمرد، 2014)؛ أبو بكر ناجي، **إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة** (دمشق: دار التمرد، 2014).

2 فرانسوا بورغا، **الإسلام السياسي: صوت الجنوب**، ترجمة لورين زكرى، ط 2 (القاهرة: دار العالم الثالث، 2001).

3 Francois Burgat, *Face to Face With Political Islam* (London: I.B. Tauris, 2003).

4 فرانسوا بورغا، **الإسلام السياسي في زمن القاعدة: إعادة أسلمة، تحديث، راديكالية**، ترجمة سحر سعيد (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2006).

أكثر إلى القارئ الغربي بأن مؤلف الكتاب ينطلق من معرفة عميقة ومباشرة بالثقافة والتاريخ والتحولات المفصلية في العالم العربي، أو يبدو أن هذا ما قصده بورغا من هذا السرد التاريخي.

يستعرض بورغا المنهجية التي يستخدمها في تحليله للإسلام السياسي، فقسّمها مستويين: الأول تحليل مرتبط بملاحظة العودة الجلية إلى الخطاب الإسلامي، انطلاقًا من ستينيات القرن العشرين، ويراه بورغا مساعدًا في فهم أسباب نزوع مكونات واسعة في المجتمعات الإسلامية إلى استعادة هذا المصطلح داخل الفضاء الاجتماعي والسياسي، فالإحياء الإسلامي، وفق المؤلف، هو استمرار لثقافة استقلالوية حاضرة في الخيال الإسلامي في مقابل استعمار ثقافي غربي. ومن ثَم، فليس هو بمنزع ينطلق من القطيعة بقدر ما هو استمرار لرغبة وحاجة ذاتية لاستمداد العالم الرمزي المحلي. أما المستوى الثاني، فيذكّر بالتنوع الهائل لطرائق الفعل التي يتيحها المصطلح بعيدًا من حصر دوافع لاعبي الإسلام السياسي في المرجعية الدينية وحدها (ص 13).

يضيف بورغا في إطاره التحليلي بعدًا مهمًا ومتميزًا من باقي الطروحات الغربية عن الإسلام السياسي، وهو ضرورة النظر إلى الخصوصية داخلية المنشأ للمصطلح الإسلامي، بوصفه مصدرًا لفضائله التعبوية، وألا نقتصر على بعده المقدس. ويرى بورغا أن قوة هذا الخطاب الإسلامي المستعاد تكمن في جاذبيته في نظر من يتبناه في ارتباطه بـ "ثقافته الموروثة"، في مقابل الأفكار التي يراها هذا المقتنع بالخطاب الإسلامي أنها مستوردة وغربية، ومقحمة من القوى الاستعمارية، ومن ثم يبني بورغا فكرته تلك على افتراض أن دينامية استعادة المصطلح الإسلامي ليست من منطلق القطيعة مع الصيرورة التاريخية، إنما هي امتداد للدينامية الاستقلالوية (ص 14).

ويلفت بورغا النظر إلى بعد بنيوي مهم في النظر إلى الإسلام السياسي، ويؤكده من خلال تتبعه التاريخي الثري خلال الكتاب، وهو ما يمكن عدّه "المكون الطبيعي" للحركات الإسلامية، كونها تتحرك راغبة في الاستقلال الوطني، بمعناه السياسي، وتنطلق وفق ما تراه مقاومة للسلطة الاستعمارية ونخبها المحلية. وهنا يقسم بورغا التطور التاريخي لهذا الخطاب إلى ثلاث مراحل: تبدأ أولاها بتأسس جماعة الإخوان المسلمين عام 1928، وثانيتها صعود الخطاب الناصري وتطور الخطاب الإسلامي، لا سيما جماعة الإخوان المسلمين، وثالثتها تنامي السياسة التدخلية، وأحادية الطرف، للولايات المتحدة الأميركية، ثم انهيار الاتحاد السوفياتي مطلع تسعينيات القرن العشرين.

وفي إشارة تأسيسية من المؤلف، يقرر فيها أن عدّه الخطاب الإسلامي مصطلحًا، أي طريقة للإحالة على الأشياء التي تُلحقها بعالم رمزي، يتجاوز الإطار المعياري الصرف، وهو ما يعني أنها تفسح المجال أمام طرائق متنوعة للتفكير والتأثير في الأشياء (ص 17). وهذا في الحقيقة هو المدخل الحقيقي الذي وظفه بورغا بامتياز لتسويغ التباينات الواسعة التي يتضمنها مصطلح "الإسلام السياسي"، ابتداءً بخطاب إسلامي كخطاب الرئيس التركي رجب طيب أردوغان (2014-)، وانتهاءً بأشد صور هذا الخطاب عنفًا، ويتمثل بخطاب تنظيم الدولة الإسلامية "داعش"، وهو ما يصفه بورغا بـ "التنوع الكلي المعاصر للإسلام السياسي".

واضح أن استغراق بورغا في سرد نشأة اهتماماته البحثية بالإسلام والعالم العربي هو غالبًا إيغال في تسويغ قدرته على تناول الموضوع، وانطلاق من موقف معرفي ومنهجي متحفظ من إنتاج باحثين فرنسيين في الحقل نفسه، أمثال جيل كيبل وأوليفييه روا اللذين اعتمدا على المقاربات الثقافوية والجوهرانية لصعود الإسلام السياسي وهبوطه، واعتمدا كثيرًا على تشريح النصوص والمقولات والتطرفات، من دون اعتبار عامل المعايشة والاشتباك والفهم لبنية الظاهرة، وتاريخها العميق لا السطحي. ومن ثم، فإن الجزء الأول من الكتاب، وعنوانه "في اكتشاف الآخر المسلم"، سار سيرًا تامًا في سرد ذاتي لمشاهدات بورغا في العالم العربي، وحكايات شخصية لأحداث مهمة، كالعشرية السوداء في الجزائر (1991-2002)، وطبيعة حكم الرئيس الليبي معمر القذافي (1969-2011) في ليبيا، والجدالات الإخوانية الجهادية في مصر منذ منتصف القرن الماضي، والتصدعات المتجذرة في بنية المجتمع والسياسة والاقتصاد في سورية.

إن دراسة الإسلام السياسي لم تكن عند بورغا خيارًا بحثيًا بقدر ما كانت موضوعًا دراسيًا فرض نفسه بلا منازع، وأن ما أقر هذا الموضوع هو الواقع، وليس إرادة واهمة غير طبيعية أرادت تغيير هذا الواقع (ص 185). وهذا يعيدنا مجددًا إلى إصرار بورغا على تقديم مسوغات لإعادة النظر في دراسات الإسلام السياسي، ومشكلات تناوله بوصفه ظاهرة مقطوعة من التاريخ.

الإسلام السياسي وحق العودة إلى "المعجم الإسلامي"

يستكمل بورغا بناء حجته المركزية القائلة بمشروعية، وحق العودة إلى المعجم الإسلامي في بعده الرمزي، في مقابل الاستدخال القسري، وفق بورغا، للمعجم الغربي العلماني الذي يمثل مسوغًا وجيهًا لرغبة قطاعات مجتمعية معتبرة في العودة إلى الخطاب الإسلامي، سياسيًا ودينيًا، وعلى أساس هوياتي ثقافي.

وكان بورغا في كتابيه السابقين، **الإسلام السياسي: صوت الجنوب** و**الإسلام السياسي في زمن القاعدة**، قد وضع بذور هذه الحجة، ثم تبلورت تبلورًا أعمق في كتابه الأخير، هذا، وباتت هي المدخل الرئيس لإثبات "طبيعية" وجود الخطاب الإسلامي. ومن ثم، فإن بناء إحدى أهم الفرضيات التي دافع عنها بورغا مرارًا، وهي أن العنف الإسلامي الراهن لم يصدر من الإسلام، إنما هو نتاج التاريخ الحديث للمسلمين الذي كتبته أيادٍ عدة، ومنها الأيادي الغربية (ص 25)، وهي إشارة تنطوي على كثير من لمز الخطابات الغربية المعادية والمستعدية للإسلام والمسلمين.

فبورغا في الكتاب الأول يؤسس لفكرة الإشكال الذي تتضمنه الرؤية الغربية للإسلام والمسلمين؛ إذ يرى أن الأمر يتعلق، فيما يخص الغربيين، بأن يتحرروا من الفكرة الخبيثة التي خامرتهم مرة وإلى الأبد بأنهم يملكون احتكار إنتاج الحداثة، ولا سيما عدّهم أن مصطلحاتهم ولغاتهم ومعاييرهم هي الوحيدة القادرة على عمل الجديد والعالمي[5]. يعود بعد ذلك بورغا في كتابه الثاني ليحاول الإجابة عن سؤال أشد وضوحًا وجرأة، هو: لماذا لا نعيد النظر في نظرتنا، نحن "الغربيين"، تجاه التطرف الإسلامي؟ وليعمّق بورغا البحث في ما يسميه "التَوْرخَة المزدوجة"، أي: التأريخ لفرضياته التي أعلنها منتصف الثمانينيات، إضافة إلى التأريخ لتجربته في الملاحظة والمعايشة مع الإسلام والسلوك الإسلامي في المشرق والمغرب العربي. ويصاحبه خلال رحلته التأريخية تلك ما هو أبعد من مسألة عنف "إسلامي"؛ إذ يرى أن ما يحصل هو صعوبة قبول الانبعاث العادي للمصطلحات السياسية الإسلامية في المجتمعات ذات الثقافة الإسلامية، وأن ثقافة غير غربية تدّعي كسر الاحتكار الغربي القديم للتعبير العام. ويتساءل بورغا بكل وضوح عن أدوار المثقفين السلبيين الذين فضحهم أمس في فرنسا بيير بورديو؛ لتورطهم في أكثر أعمال المجموعة الحاكمة الجزائرية وضاعة، والمثقفين السِتَار في الجنوب الذين يخفون اليوم عن الجمهور الغربي الذي يرغبون في استمالته، أو استخدامه، حقيقة المجتمعات التي يدّعون أنهم سفراؤها الوحيدون: هل ما زالت الوساطة العلمية لعالم الآخر قادرة على ممارسة دورها؟[6]

يعيد بورغا إعادة بناء محطاته التأريخية، الفرضيات والسلوك الإسلامي، في كتابه **فهم الإسلام السياسي**، ويسير في الجزء الأكبر منه في سرد كثير من الوقائع التاريخية التي عايشها؛ ليبرهن صواب اقتناعه بأن تصنيفه التحليلي للإسلام السياسي مصطلح جديد لحركة قديمة مناهضة للاستعمار بداية، وللإمبريالية لاحقًا[7].

يعطينا بورغا في واقع الأمر قدرًا مهمًا من الحجج التي تدعم الاتجاهات الساعية إلى مدافعة الرؤى الغربية والعلمانية عن الإسلام السياسي، ويراها بورغا تتعمد الانتقاص من الحالة الإسلامية المعاصرة، أو تشويهها أو اختزالها، وتحصرها غالبًا في أطر العنف والإرهاب والتطرف، وتتجنب المقاربات البنيوية الموضوعية، كتلك التي يطرحها بورغا. ويشدد بورغا في أكثر من موضع على أن أصل الإشكال نابع من الرؤية الغربية للإسلام، وللإصلاح الإسلامي، وأن المقاربات الثقافوية التي تتعامل مع الإسلام على أنه أصل الإشكال، بوصفه دينًا وتأويلاتٍ دينية، وأن هذه الرؤية تنطوي على تناقضات وقصور منهجي شديد.

يغطي بورغا تغطية واضحة جل الحجج والانتقادات التي يمكنها أن تحاصر هذه الرؤى الغربية والعلمانية، وإن كان بورغا في بعض الأحيان يثير بعض الهموم الأكاديمية التي يواجهها في مسيرته البحثية؛ من جرّاء مواقفه المناصرة للحركات الإسلامية، والمناهضة للنظرة الغربية إليهم (ص 210)، إلا أن هذا الدافع قد يجعل من اتساق بورغا مع طروحته هذه أكثر تجانسًا ومنطقية، ويساهم في قبول مجمل طروحته نظريًا وعمليًا، إلى درجة تجعلنا نعتبر بورغا هنا "إسلاميًا أكثر من الإسلاميين".

وعبر تقصي المراحل التاريخية لنماذج مصر ولبنان وسورية والجزائر وتونس، يدافع المؤلف من خلاله عن حق الإسلاميين في الاحتفاظ بطرائقهم في فهم العالم والنظر فيه، وأن ما تردده بعض الاتجاهات العربية المعارضة للإسلام السياسي هو اصطفاف مع المقولة "يكفي أن تكون 'منا' أن تردد أنك تحارب الإسلاميين 'مثلنا' [الغرب]، فهؤلاء 'الإسلاميون' كانوا، وسيبقون إلى آخر الزمان، غير متوافقين مع رؤيتنا للعالم" (ص 198).

ويبرهن المؤلف بعدئذ على ترسخ ضريبة الاختلاف مع الرؤية الفرنسية الرائجة عن الإسلاميين، من خلال تاريخ نضالي ومرهق للمفكر المصري طارق البشري (1933-2021)، والمفكر السويسري من أصل مصري طارق رمضان (1962-)، فبورغا الذي قابلهما في مرات عدة، ولمس بنفسه الأثمان السياسية والأكاديمية التي دفعاها من جرّاء الاصطفاف مع معسكر "الآخر"، وفق المعجم الفرنسي، يسرد مواقف وبراهين عدة على العداء الإعلامي لهذا المعسكر، والتدخلات الاستخباراتية في سياق الحالة الجزائرية والفلسطينية، انطلاقًا من استقرار وصمهم بـ "الآخر" (ص 210-239).

5 بورغا، **الإسلام السياسي: صوت الجنوب**، ص 396.

6 بورغا، **الإسلام السياسي في زمن القاعدة**، ص 15-16.

7 المرجع نفسه، ص 40.

فرانسوا بورغا في مواجهة جيل كيبل وأوليفييه روا

دارت في الفصول الأخيرة من الكتاب سجالات نقدية قدّم فيها بورغا عددًا من الانتقادات المهمة للطروحات المختلفة التي قدمها كيبل وروا عن الإسلام السياسي، لا سيما طروحاتهما حول إخفاق الإسلام السياسي وأسلمة الراديكالية[8].

يعزو بورغا أحد الأسباب الثاوية في السياق العام الفرنسي "الرسمي" لرواج طروحات كيبل وروا إلى قرب هذه الطروحات مما يسميه "اللائق سياسيًا" الفرنسي أكثر مما يقدمه بورغا، وهو سبب خفيّ وجليّ في آنٍ واحد، ويحمل كثيرًا من الوجاهة المنطقية، إذا ما سلّمنا بغلبة المزاج المعادي للإسلام في الأوساط السياسية والأكاديمية الفرنسية، والغربية عامةً.

ويقدّم بورغا أيضًا حجة إضافية تدعم جودة طروحاته مقابل تلك التي يطرحها كيبل الذي يعتمد على المقاربة الثقافوية، فبورغا دخل إلى ساحة تحليل الإسلام السياسي من بوابة اللقاء مع الفاعلين، بخلاف كيبل الذي تعامل مع الظاهرة من بوابة قراءة نصوص هؤلاء الفاعلين، وهو ما يعطي في الواقع مزية تفوّق لبورغا على كيبل في اقتراب أعمق من عقلية الفاعلين الإسلاميين وذهنياتهم، ومن ثم نصوصهم وأفكارهم المكتوبة، أو المسموعة من بُعد.

يرى بورغا أن نقطة الخلاف الرئيسة بينه وبين كيبل تكمن في ارتكاز الأخير على النصوص المؤسسة لتفسير الممارسة والتخيل السياسيين للفاعلين الإسلاميين، وليس العكس. ويرى أن اعتماد كيبل على هذا النهج يمثل خللًا منهجيًا رئيسًا في عدم صمود الطرح الكيبلي أمام التغيرات التي شهدتها المنطقة العربية والخطاب الإسلامي في العقد الأخير. ويصف كتابات كيبل بأنها تنتمي إلى فضاء النبوءات ذاتية التحقق، أو الهادفة إلى افتعال الحرائق، وبعيدة عن التفكيك المتأني الذي تنتهجه العلوم الاجتماعية.

يساهم بورغا في النهاية بنقدٍ متميز لمثابرة كيبل على تقرير مقاربته ذات النزعة الاقتصادية القائلة بقدرات تجنيد الإسلاميين للطبقات المهمشة تنمويًا؛ إذ يرى بورغا أن "لا شك في أن تتبع التطورات التي تؤثر في الحاضنة الاجتماعية لأشكال الحراك المعارض ليس في غير محله، شريطة ألا يفضي هذا إلى تعميمها على صورة تفسيرات اجتماعية-اقتصادية؛ لأسباب تبني أو ترك المحتجين لمصطلح إعادة الأسلمة، وينبغي الفصل بين الحامل الاجتماعي لحراك احتجاجي ما، وبين الحامل الهوياتي الذي يوجّه نحو انتقاء المصطلح الذي يلجأ إليه الفاعلون للتعبير عن احتجاجهم، وأن العامل الهوياتي الذي يدفع إلى اختيار المصطلح الإسلامي ذو طبيعة عابرة للتشكيلات الاجتماعية" (ص 250-251). والحقيقة أن بورغا قدّم هنا نقدًا وتفكيكًا بارعًا للطروحات الأحادية، كطروحات كيبل[9].

ثم يقدّم بورغا نقدًا أشد جذرية لأطروحة أوليفييه روا "ما بعد الإسلام السياسي"، والمعتمد على المقاربة النفسية-الاجتماعية، فينتقدها من جانبين: الأول جانب التعريف التبسيطي لهذا المفهوم، والثاني مناقضة تبعات هذا المفهوم لحقيقة جزء مهم من الإسلام السياسي وواقعه.

يحيل بورغا سبب انتقاده طروحات روا إلى ولوج الأخير بوابة ميادين الإسلام السياسي من الفضاءات الأفغانية والفارسية، ويرى أن هذا المدخل أنتج بعدًا لدى روا شبه كامل للتجذّر السوسيولوجي أو اللغوي في العالم العربي، ويعلل سبب رواج أطروحاته إلى ما يسميه "سحر التعميم" الذي لا يخلو من نظرة ماهوية، أنشأت علاقة هشة بالنبض العربي للمجتمعات المسلمة، وهي التي ستفضي، وفق بورغا، إلى طريق مسدودة أمام التحليل (ص 243-244).

يرى بورغا أن روا اختزل فكرة تجاوز الإسلام السياسي في فشل رغبتهم في تنصيب معتقدهم الديني أيديولوجيا سياسيةً، وهي رؤية تعبّر عن جزء من الفاعلين الإسلاميين وليست عن أغلبيتهم. إضافة إلى أن بورغا يرى أن تأويلات الإخوان المسلمين السياسية تعدّ أكثر تكيفًا مع الفكر السياسي الغربي منها للرفض الشامل لها، وذلك بناءً على كثير من المواقف التي أبداها الإخوان متصالحين، إلى حد بعيد، مع بعض ممارسات الديمقراطية وقيمها منذ عصر حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين ومرشدها الأول (1906-1949)، إلى وصول الرئيس المصري محمد مرسي (2012-2013) إلى السلطة في مصر.

خاتمة: درس في النقد الانطباعي

قدّم بورغا في كتابه درسًا واضحًا في ما يمكن وصفه بـ"النقد الانطباعي"؛ فمن خلال نمط بحثي غير معتاد، يتنقل المؤلف بين أجناب تجاربه الشخصية الطويلة في ميدان دراسة الإسلام السياسي، مستصحبًا عددًا من الانطباعات والقراءات الذاتية لهذه التجارب.

8 ساري حنفي، "محاربة الجهاديين أم الكف عن صنعهم: مقابلة فرانسوا بورغا"، ترجمة منير السعيداني، مجلة **إضافات**، العددان 38-39 (2017).

9 أشار بورغا أكثر من مرة إشارات انتقاصية إلى كيبل، من قبيل: قدراته على توفير التمويل المالي اللازم لأبحاثه وأبحاث طلابه، إضافة إلى أن كيبل وروا كانا قريبين من الإعلام الفرنسي ومتوافقين مع توجهاته، وهي إشارات في واقع الأمر قد تكون غير جيدة في السياق الأكاديمي، لكنها في سياق الطرح البورغاوي تعبّر عن إطار فكري عام، يتحرك فيه، ومن خلاله، بورغا في أعماله البحثية.

وعلى الرغم من مجانبة جزء من هذا النمط البحثي قواعد الكتابة الأكاديمية، فإنّ إصرار بورغا عليه مهّد لتلقّي القارئ حزمة الانتقادات التي وجّهها لأطروحات روا وكيبل؛ إذ أثبت أنه جدير بالبحث في حقل دراسات الإسلام السياسي، من خلال خبرته ومعرفته المباشرة بالتاريخ والواقع والبنى، وأثبت أيضًا الأعطاب المنهجية التي شملت زملاءه في المدرسة الفرنسية المعاصرة لدراسات الإسلام والإسلاميين.

لكننا، ومن الناحية المنهجية، سنواجه حتمًا إشكالية تسري في طول الكتاب وعرضه، متعلقة بصعوبة القبض على مقولات تفسيرية، وخطوط واضحة للمقاربة البورغاوية للإسلام السياسي؛ إذ ارتكز أكثر على نقد الطروحات الآخرية، أي: الطروحات التي ترى في الإسلام آخرَ يستبطن أسباب فشله أو إخفاقه السياسي، وأرهق القارئ بتنقلات كثيرة وكثيفة لمواقف تاريخية حديثة ومعاصرة عايشها بنفسه، ومن خلال لقاءات مباشرة مع عدد من قيادات القرار في الحركات الإسلامية المختلفة وصانعيه. لكن تبقيها رواية بورغاوية مفتقرة إلى أي من الشواهد أو الدلائل الأكاديمية، فيلاحظ الغياب الكلي لأي إحالة أو عزو إلى مراجع مكتوبة أو مسموعة تعدّ أداة مسلّمًا بها في البحث الأكاديمي.

وما يمكن اعتباره أيضًا غلوًا في النقد الانطباعي البورغاوي هو الانتقالات المتعددة في الباب الواحد، بين شخصيات أو بلدان أو حقب تاريخية بعيدة، في مساحات كتابية صغيرة، ومن دون وجود إطار منهجي واضح لتسويغ هذه القفزات، فيأتي بورغا في الجزء الأول من الكتاب، وبعنوان "البدايات الآتية من الجماهيرية"، على الحديث عن مصر وتونس وليبيا وسورية، في فقرات سريعة وقفزات تاريخية واسعة (ص 71-87)، في محاولة منه لنقل انطباعاته الأولى التي دفعته لتوجيه بوصلته البحثية نحو الإسلام السياسي، وهو نمط كرره مرات عدة في الكتاب.

لقد مثّل كتاب بورغا **الإسلام السياسي: صوت الجنوب**، أواخر القرن الماضي، إرهاصاته المبكرة في نقد دراسات الإسلام السياسي المنصبّة على الظاهرة، من باب الارتباط الشرطي بثورة الخميني في إيران عام 1979، وبتراكم المعرفة المتعلقة بها من باب التناول الخارجي، لا الاقتراب المفضي إلى فهمها بنيويًا وعميقًا، ورأى بورغا حينئذ أنه ينبغي للباحث في هذا الحقل أن يقترب (بالقدر الكافي منه؛ لكي يتسنى لنا رؤية المظاهر المتعددة التي لا يلمسها من يراقب الأمور من الخارج)[10].

وفي واقع الأمر، فإن ما يستجد في الحالتين: التونسية، والأفغانية حاليًا، يصبّ في مصلحة النهج الذي قدّمه بورغا، وأهمية الاقتراب الثقافي واللغوي والسياقي لدراسة هاتين الحالتين، لا سيما مع فجائية الأحداث وسرعة توالیها وتقلباتها، وتعقد بناها السياسية والاجتماعية والثقافية، فضلًا عن حالة السيولة المعلوماتية والمعرفية التي تتولد من الفضاءات العلمية والثقافية العربية.

تتبلور تبلورًا أشد مجمل أطروحة بورغا في كتابه الأخير، ويقدّم فيها مزيدًا من الحجج لنقد الأطروحات التبسيطية لتعقيدات الإسلام السياسي، وتنجح أطروحته، بدرجة ما، في تقديم مداخل جديدة لقراءة الفعل السياسي الإسلامي بمختلف تنوعاته، ويزاوج بورغا، بناءً على حجج وبراهين، بين البعد الهوياتي السياسي والبعد الديني المقدس في فعل الإسلاميين، مع تقرير رحابة الخطاب الإسلامي في التأويل والفهم والفعل، ويعزو بمنطقية جزءًا من العنف الموجود في الفضاء الإسلامي إلى عوار المعاملة الغربية للعالم الإسلامي، حيث يصفها بورغا في عبارة له أمام البرلمان الأوروبي عام 1997: "لا نلقى من المسلمين إلا ما أعطيناهم إياه" (ص 262).

إن خلاصة أطروحة بورغا يصفها بأنها تحاول البحث عن جذور الجهاد حيث تكون، أي متجذرة بعمق في الفضاء السياسي، في قلب بؤس الأهداف التي لا تجيد سياساتنا [أي الغربية] الخارجية اختيارها، وفي قلب معاناة شريحة واسعة من المهمشين الذين تسحقهم آليات الإقصاء. وتعيد إلى الأذهان حقيقة واضحة وضوح الشمس: عندما يضيق العالم بأحد ما، في فرنسا أو العراق أو أي مكان آخر، عندما لا يتاح له أن "يوجد بكامل كيانه". أيًا كان رسوله، فإن خطر رؤيته وهو يلتحق بصفوف أولئك الذين يريدون العيش "بصورة منعزلة تمامًا" كبيرٌ جدًا (ص 274).

10 بورغا، **الإسلام السياسي: صوت الجنوب**، ص 20.

المراجع

العربية

بن محمد، عبد الله. **المذكرة الاستراتيجية: المنهج الأساس لعمل القاعدة.** دمشق: دار التمرد، 2014.

بورغا، فرانسوا. **الإسلام السياسي في زمن القاعدة: إعادة أسلمة، تحديث، راديكالية**. ترجمة سحر سعيد. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2006.

_____. **الإسلام السياسي: صوت الجنوب**. ترجمة لورين زكرى. ط 2. القاهرة: دار العالم الثالث، 2001.

حنفي، ساري. "محاربة الجهاديين أم الكف عن صنعهم: مقابلة فرانسوا بورغا". ترجمة منير السعيداني. مجلة **إضافات.** العددان 38–39 (2017).

ناجي، أبو بكر. **إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة.** دمشق: دار التمرد، 2014.

الأجنبية

Burgat, Francois. *Face to Face With Political Islam*. London: I.B. Tauris, 2003.